الملعبة، أقدم نص بالدارجة المغربية

أقدم نص بالدارجة المغربية هو ملحمة شعرية كتبها شاعر بالزجل في حركة السلطان أبي الحسن المريني إلى تونس أو افريقية بالاسم القديم في أواسط القرن الرابع عشر .

حسن أوريد

دأب السلاطين المغاربة أن يصحبوا معهم في «حَرْكاتهم» (حملات عسكرية) مؤرخين وشعراء وكتابا ليخَلّدوا مآثرهم، وكان صاحب هذا النص، عبدالله الكفيف الزرهوني، من هؤلاء ممن نظم في هذا الغرض الفريد من أغراض الشعر ويسمى بالملعبة، أو هو الاسم الذي أطلقه ابن خلدون على هذا الجنس الأدبي والذي خصه بتعليق بالمقدمة إذ يقول: "وكان لهذه العصور القريبة من فحولهم بزرهون من نواحي مكناسة رجل يعرف بالكفيف أبدع في مذاهب هذا الفن، ومن أحسن ما علق بمحفوظي، قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى إفريقية يصف هزيمتهم بالقيروان، ويعزيهم عنها، ويؤسيهم بما وقع لغيرهم في ملعبة من فنون هذه الطريقة، وهو من أبدع مذاهب البلاغة".

حَرْكة السلطان إلى تونس

من المفيد أن نذكر بملابسات هذا النص، فلقد كان السلطان أبو الحسن المريني مرتبطا بحاكم إفريقية «تونس آنذاك» أبي بكر الحفصي بعلاقة مصاهرة، إذ كان زوجا لابنته، وبنو حفص كما هو معلوم فرع من المصامدة، وكان أبو بكر قد عهد لابنه العباس بعده، وأعلم بذلك أبا الحسن ووافقه عليه.

لكن الأمور سارت على غير ذلك، إذ عمد حاجب تونس ابن تافراجين (بالجيم المصرية) إلى تولية أخيه عمر الذي قتل العباس، وأخذ يتهدد ابن تافراجين نفسه، فلم يجد هذا الأخير بدا من أن يستقدم السلطان أبا الحسن المريني ويزين له تملك إفريقية. والواقع أن ابن تافراجين هذا لم يفتأ يكثر من الدسائس ويضرب هذا بذاك مما سيكون السلطان أبو الحسن ضحية له. وقد أجمع السلطان الجموع أو الحركة، من مختلف مناطق المغرب الأقصى فالأدنى إلى تونس، ولنا في نص الكفيف هذا تصوير دقيق لهذه الحركة وللأماكن التي حلت بها قبل أن تبلغ تونس، ويدخلها السلطان أبو الحسن دخولا مظفرا، وكان من نتائج هذا الدخول أن ارتبط شاب من تونس بعلماء السلطان المريني وصحبهم سوف يكون له شأو وأي شأو في مسيرة الفكر هو عبد الرحمن بن خلدون، وسنه آنذاك لا تتجاوز الست عشرة سنة، وهو يخبرنا بشأن هذه الحركة في سيرته "التعريف"، ويقول عنها: "وحضرت بمجلس السلطان وكان يوما مشهودا"، والتقى بكثير من علمائها، مما سوف يكون له تأثير على مسيرته الفكرية، حتى إذا عادت الحركة إلى بلاد المغرب صحبهم، أو كما يقول في التعريف، وهو سيرته الذاتية: "فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب، وانحسر تيارهم عن إفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ، فاعتزمت على اللحاق بهم". تملك السلطان إفريقية دون أن يسلم المقاليد لابن تافراجين، فألب هذا الأخير عليه القبائل العربية التي حاصرته بالقيروان سنة 749هـ/1348م، وظل كذلك محاصرا مدة من الزمن، ولم يجد بدا إلا أن أبحر من سوسة إلى تونس ومنها إلى بلاد المغرب الأقصى. وحينما كان على مشارف تدلس من المغرب الأوسط غرقت أساطيله، وهلك من ذلك جمهرة من العلماء، بل غرقت نسخة المصحف العثماني التي كان السلاطين المغاربة يتوارثونها سلطانا عن سلطان، وكانت تلك نكبة كبيرة، ونجا السلطان بأعجوبة، ثم إنه لما وصل المغرب الأقصى وجد ابنه أبا عنان قد استولى على الملك، فدارت رحى الصراع بينهما. كانت، إذن، نكبة، لا لأن الحركة "انكسرت" كما كان يقال بالتعبير المغربي القديم، بل لأنها كانت شؤما، فلقد هلك عدد كبير من العلماء، وكان العلماء آنذاك مفخرة السلاطين، وكان منها ضياع نسخة المصحف العثماني. (لسوف يتحول السعديون بعدها لنسخة من المصحف العقباني نسبة لعبقة بن نافع، أما السلاطين العلويون فكانوا يسافرون مصحوبين بنسخة من صحيح البخاري، منذ السلطان مولاي إسماعيل)، وكانت إحدى المحاولات الأخيرة لتوحيد بلاد المغرب، فلقد توالت الانكسارات بعدها وتعاقبت، وانتهت بسقوط غرناطة، وانكماش دول المغرب في استراتيجيات البقاء. لدينا شهادة فريدة بلغة ذلك العصر، يرى الدكتور محمد ابن شريفة، الذي يرجع له الفضل في إخراج هذا النص وتحقيقه، أنها لغة الحواضر المتأثرة بالأندلس، والواقع أن بها مصطلحات أمازيغية مما يجعلها مغربية صرف. ■

الملعبة بين الوصف والحكم

● لا نستطيع استعراض القصيدة لأنها طويلة تجري مجرى الملحمة، ويمكن أن نعرض لعناصرها، فهي تبدأ بتفكر في أمور الحكم ومسؤولية الحاكم:

سبحان مالك خواطر الأمرا
نواصيها كل حين وزمان
إن طعناه عطفم لنا نصرا
وإن عصيناه قضى بكل هوان
قلب السلطان يقال كالجوزاء
وقلوب الخلق جاريا مجراه

في هذا الاستهلال قبل أن يأخذنا الشاعر إلى توصيف دقيق للحركة والأماكن التي حلت بها، وتدور عليها الدوائر بالقيروان، يعلن حكمه ويعتبر الحركة إلى تونس خطأ:

أمولاي بالحسن خطينا الباب
في قضية سيرنا لتونس
في غنى كنا عن الجريد والزاب
وشلك بعرب فرقية الغويس

وشلك، بمعنى: وأما أنت وعرب إفريقية، و (الغويس) الذئاب. ثم يذكر بالوشائج الأسرية التي تربطه وحاكم تونس وهي التي دفعته إلى هذه المجازفة:

نقول لك ما رمى المرينيا
من حضرة فاس إلى عرب دباب
راد المولى يموت أبو يحيى
صاحب تونس وساحل العناب
ولقد كان قبل هذه الأشيا
جعل أولادو لأبو الحسن انساب

وحدث ما نعلم من قتل ولي العهد واستبداد أخيه عمر بالحكم وتظلم أهل إفريقية إلى السلطان المريني:

ثم أتت من فريقا رَسْلا
باللي هتك عمر من الأستار
من قتلو خاه ومحنة الدَّوْلا
وهتك الملك وانكشاف لسرار
وتعلق بالملك خا الطفلا
والشيخ بن تافراجين لغرار
قالوا لو يا زمرد المرا
انظر هذا امعق الأبوان (أي عائق الأبوين)
كيف حز الراس وقطع البشرا
وخلط دم النسا مع الصبيان

ثم يتوجهون للسلطان أبي الحسن بالطلب.

اجبرها يا غضنفر الدولا
واحكم بالشرع فاللي يعصي
واستعمل لأرض تونس الرحلا
أنت اليوم عندنا وكيل ووصي
ومقام الأب والسها الأعلا

و غضنفر: الأسد، والسُّهى: السماء البعيدة والأهم من تغلب إفريقية وبجاية أن يشيع الأمن في بلاد المغرب ويتاح لمن أراد أن يحج بيت الله أن يفعل:

واعظم من ذا واجل تقديسا
تفتح طريق الحج للحجاج
وتنقيها من العدو البيسا
حتى تمشي فيها المرا بالتاج

ثم ها هنا ندخل في شيء عجيب هو فتح باب التطوع من كل أرجاء بلاد المغرب، وهو ما كانت تقوم به الحركات من خلال ما تقدمه القبائل من متطوعين يسمون في أدبيات المخزن بـ"النايبة". وسوف تستغرق عملية التعبئة عاما مثلما يخبرنا الزرهوني.

ومن السوس جلبه إلى شرشال
قبّ وعلام وخيل ومطاية
وبقى عام تتجمع عليه الابطال
تشرف راية وتنزو راية
ما خلا لا عرب و لا قرا
لا جابر ولا خلط ولا سفيان
كان فيها من صناديد آيت مرين
ست عشر ألف أو تنيف عاد
أولا زيان وروس (الأوراس) بني توجين
مع مغراوة ورهط عبد الواد
لاكن الشوك ما يعطي التين
أو يجني الورد من عروق الداد

وهو هنا يحيل إلى العلاقة المتوترة ما بين بني مرين وبني عبد الواد حكام تلمسان، ثم إلى اجتماع الوفود والقبائل بحاضرة تلمسان، ثم ما صاحبها من نقص في الماء وغلاء الزاد، ويتساءل أكان من الضروري الرحلة إلى إفريقية؟

في تلمسان جمع الجيوش وطلع
هذا والزرع كف بدا يحصاد
أمارا من شلف لمن جمع
من فقد الما والغلا في الزاد
واش كان دعانا لراس الاقرع
يغسل بالماء ولا يساق للواد

ثم يصور المفازات الصعبة التي قطعتها الحركة قبل أن تستقر بأرباض بجاية:

ولجبل الزان ولوطا حرك
ما خلا لا سبع ولا غيلاس
حتى الخيل ردها شعرا
ومن الواد الكبير سقى ايسان

وهنا نلتقي باسمين أمازيغين، فأغيلاس هو النمر بالأمازيغية وإيسان هو الخيل. ويصور لنا الزرهوني بعضا من واقع بجاية، ومنها تعاطي أهلها للخمر:

صاب في بجاية مع الثلث خمر
كل خليع عند من(ه)ا وادي
فاهرقها في النهر حتى
صار خطا يعدها الغادي

ثم بعد بجاية أكمل السلطان حركته في اتجاه قسنطينة.

خْلا-احْكام البلاد لابن النوار
ورحل عنها لقسميطينا
ايام وليالي واودية وعار
وقبايل كالذياب تدور بنا
ناس جاهلا لا قرار ولا إيثار
ما ترعى عهدها ولا دينا

ثم تدخل الحركة مجالا يغلب عليه الأعراب، كما لو أنها فرشة نباتية مغايرة لتلك التي كانت تمر بها الحركة من فاس إلى قسنطينة، يغلب عليها الأمازيغ.

في عرب يصبح وفي عرب ممسي
منهم يرحل وبينهم ينزل
وفي كل شهر من العرب يكسي
سبعين ويجود من الذهب بحمل
والعربي كالندى على الغرس
يوم تقطع عنوا لعطا يخذل

فيصل السلطان تونس ويجد صاحبها عمر بن الحفصي قد فر وأخذ من المتاع ما خف وثقل.

ما خلا لا ذهب ولا دُرا
إلا حمل في ظهر إيسردان

والدرا هنا أي الدر، وإسردان هي البغال بالأمازيغية

ثم يصور الشاعر كيف تعقب جندُ أبي الحسن عمر والقوا القبض عليه، وقطعوا رأسه وأسلموه للسلطان، وعزف أن يطوف به ويحمله على الرماح كما جرت العادة لكل من شق عصا الطاعة، لأن أخته زوج السلطان. وأتت وفود من شيوخ الأعراب تقدم التهنئة للسلطان، وهنا يرى الشاعر أن كان على السلطان أن يقبض عليهم، ويسجنهم، لأن الوفاء ومكارم الأخلاق لا تجوز في السياسية، إذ لو فعل السلطان لجنب نفسه ما سوف يعيشه من مآسي مصدرها شيوخ الأعراب:

خذ صيدك حين حصل في المدرا
جر الشبكة وكتف الورشان
قالو الحر كيف يرتضي الغدر
قالو الغدر من الملوك رجحان

ثم لما أراد السلطان أن يفرض عليهم الزكاة غضبوا وقدّموا نسبهم العربي:

قالو بعث الأمير لاهل الخوص
في زكاة البل بالشرع توخاذ
فتلاطت العرب وزاد امرا
حتى قالوا عجب لذا الاسنان
حنا هنا من زمان عمر وعلي
وكثرنا من سلالة الصحبا
ودركنا عبد المومن بن علي
وملكها من سلا لارض سبا

فما كان جواب السلطان إلا أن قدم واجب الشرع:

قال لهم تالله وتمنعوا وبرا
لغزيتك إلا بحجة الفرقان

والتحم الجمعان وكانت الدائرة على الأعراب إلى نزل السلطان بالقيروان:

وانهزموا وحرفوا الخيمات لورا
يحامو بالسيف عن تيسدنان

وتسيدنان هن النساء في اللسان الزناتي. هزمهم لثلاث مرات، ولكن الرابعة كانت عليه أو الكسرة كما كان يقال إلى عهد قريب لكل حركة انهزمت:

والكسْرَ الرابعة عليه جرت
وف ذيك الرابعة العرب عجنوه

أبدى السلطان مقاومة شرسة ولكن عدد الأعراب كان كبيرا فأحاطوا به من كل جانب. يصور الشاعر حزن نساء الحركة واستماتة الرجال بلغة تختلط فيها العربية والأمازيغية "ومراة بنا (أي زوج الرجل) تسبل إنزارن" أي المطر بالأمازيغية كناية عن الدمع،

"وحيا العرام وشد كل جبان"

والعرام هو الشجاع بالأمازيغية، ولا يزال يطلق إلى الآن، "أعريم". لكن الهزيمة كانت على جيوش بني مرين. ويقدم الزرهوني محصلة المعركة التي هلك فيها من مختلف مناطق المغرب في مواجهة أهل البلد.

بارزت عرب أزغار تامسنا
مع سكان تادلا وإيم جطين
والصحراوي ومن حضر معنا
من سكان ملوية السوديين
خلت مع الكعوب عجنا
هولا غربا و ذوك بلديين

هولا، أي يعني هؤلاء غرباء. ثم ينتهي بالخلاصة:

أش مقدار ما نْطول الهدرا

و يعرض بإيجاز وفي كناية لغرق سفينة السلطان، أو رزية المسمار كما في تعبيره:

أما را قلبك أمريني من نار
وما جرع من سموم وعلقم
إذ خابوا يوم رزية المسمار
رشقوا سهم و هجم عليهم رقم
قالوا لي ذل العزيز وماتوا الاحرار
والتهمهم بحر واي بحر

كانت النكبة في الحقيقة إيذانا بتفرق بلاد المغرب، ودخولها نفقا من الصراعات الداخلية أفقدتها الهيبة ونزعت منها الشوكة، واستعصت معها الوحدة، ولذلك يكتسي هذا النص أهمية مضاعفة، فهو شهادة تاريخية لمرحلة مفصلية من تاريخ بلاد المغرب، وثانيا لأنه يحدثنا بلسان ذلك العصر، في لغة هي عوان بين اللغة الفصيحة ولغة التخاطب اليومي.

* نص القصيدة باللون الأخضر والتعليق عليها باللون الأسود